مؤلف أركل عن الخرطوم

Arkell (J) : Early Khartoum Oxford University Press, 1949.

كثيراً ما كتب المؤرخون وعلماء الآثار عن أصل حضارة قدماء المصريين، وهل هى حضارة أصيلة محلية نشأت فى شمال وادى النيل، أم جاءت مع قوم من جنوب الوادى، أو أتت مع قوم آخرين وصلوا إلى شاطىء النيل، سواء من شرقيه أو من غربيه. ومهما اختلف رجال الآثار فى التفاصيل، فإنهم متفقون على أن هناك حضارة أصلية نشأت على ضفاف النيل، ولكنها تأثرت بمن اتصلوا بقدماء المصريين من شعوب أخرى، فى عهد ما قبل الأسرات، وفى فجر التاريخ المصرى. ويتجه الأثريون أحيانا إلى الغرب وسكان ليبيا القدماء، وأحيانا أخرى إلى الشرق وأممه العريقة فى المدنية؛ ولكن يطول اتجاههم إلى الجنوب، ويقارنون بين مظاهر الحضارة فى بعض بلاد جنوب السودان فى عصرنا الحاضر ومشابهتها لما نعرفه من مظاهر حضارة قدماء المصريين فى بدء مدنيتهم.

ومن الثابت لدينا أن الحضارة التى عمت مصر فى عصر ما قبل الأسرات كانت تعم أيضاً بلاد النوبة الشمالية بين أسوان ووادى حلفا ودنقلة. ولكن قلة الأبحاث الأثرية فى السودان—وخاصة ما اتصل منها بأقدم العصور—جعلتنا نقف حائرين متسائلين عما إذا كانت هذه الحضارة نفسها منتشرة فى تلك الأيام بين السكان الذين كانوا وراء الشلال الرابع. وإذا كان الرد بالإيجاب، فما هو مدى انتشارها، وما مدى أثر سكان أواسط أفريقيا الزنوج على هذه الحضارة، وبعبارة أعم ما هى وجوه الشبه أو وجوه الاختلاف بين ما نعرفه من حضارة شمال الوادى أى مصر وحضارة جنوبى الوادى فى السودان.

لهذا رحب علماء الآثار المصرية ترحيباً قلبياً بما أذاعه المستر أركل مأمور الآثار السابق بالسودان فى عام ١٩٤٥، بأنه وفق إلى اكتشاف منطقة أثرية قديمة فى الخرطوم ترجع حضارتها إلى عصر ما قبل الأسرات، أى قبل

عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وأنه وجد فيما عثر عليه من آثار ما يثبت الصلة الوثيقة بين من عاشوا فى مصر إذ ذاك وبين من عاشوا فى المنطقة التى تحتلها مدينة الخرطوم الآن .

وها هو كتاب الأستاذ أركل يصل إلينا بعد طبعه ، وفيه نتائج حفائره . ولكن قبل أن نلخص ما وصل إليه من نتائج علمية . يجدر بنا أن نقف قليلا . لنذكر شيئاً عن مكان الحفائر والظروف التى ساعدت على هذا الكشف .

حفائر الخرطوم القديمة : تأسست مدينة الخرطوم الحالية بين عامى ١٨٢٢ ، ١٨٣٠م ، بأمر المغفور له محمد على باشا . ولم يكن فى هذه الجهة إلا قرية صغيرة ، ولكن سرعان ما نمت المدينة الجديدة ، وأصبحت عاصمة للسودان . وبالرغم مما أصابها أيام ثورة المهدى ، فإنها ما زالت آخذة فى النمو ، وكان اكتشاف المنطقة الأثرية الجديدة أحد نتائج اتساع رقعة مبانى المدينة . ويقص علينا الأستاذ أركل قصة عثوره على هذه المنطقة ، فيقول بأنه كان مكلفا أوائل الحرب العالمية الأخيرة بالعمل مع إحدى جماعات الدفاع الجوى التى كانت تعسكر فوق أحد التلال ، داخل حدود مدينة الخرطوم بجوار المستشفى المدنى وكان عليه أن يظل ساعات طويلة من كل يوم رابضاً فى خندق منتظراً إغارة الطائرت الإيطالية ، وكان وجوده فى هذا الخندق هو السبب فى ملاحظته أن هذا التل ليس تلا عاديا مثل غيره ، وإنما كان يختلط بما على سطحه من قطع من طوب أو أحجار قطع مزخرفة من فخار ذات طابع خاص ، كما كان هناك أيضاً قطع من حجر الكوارتز وأحجار الطحن وغيرها .

وبالرغم من علم الأستاذ أركل بأن سطح هذا التل كان مستعملا جبانة إلى عهد قريب ، فقد أدرك أن هذا الفخار وهذه الأحجار أقدم عهداً ، وانتقى من بينها بعض العينات عرضها على أحد العلماء المختصين عام ١٩٤١ ، فأوضح له أهمية المنطقة ، وطلب منه عند عودته من كينيا إلى الخرطوم أن يعاود البحث لعله يجد آلات من الظران . فلما عاد أركل إلى الخرطوم وجد كثيراً من هذه الأدوات ، وقدم بذلك تقريراً إلى لجنة الآثار والمتاحف فى الخرطوم .

وفى شهر سبتمبر ١٩٤٣ رأى الحاكم العام ضرورة توسيع المستشفى المدنى وإدخال جزء من التل فى المبنى الجديد ، ولهذا وافق على رأى لجنة الآثار ، وهو ضرورة بحث هذا التل بحثا علميا قبل إزالته . وبدأت الحفائر فى أكتوبر ١٩٤٤ ، وكانت تحت إشراف الأستاذ أركل يعاونه المسيو ديبونو . أما العمال فكانوا من المساجين ، ما عدا أربعة من العمال المصريين المدربين الذين استحضروهم من مصر . وبدأت الحفائر بشق خندقين طوياين فى أعلى التل بعد تقسيمه إلى مربعات على خريطة ، فتحققوا من وجود مقابر قديمة وآثار مساكن يرجع تاريخها إلى أبعد العصور ، كما أثبتت الحفائر فيما بعد أن هذا المكان بالذات كان مستعملا فى العصرين المروى والنبانى .

لم تستمر الحفائر إلا أسابيع قليلة ، ولم يتم حفر التل بأكمله بل تم حفر الجزء المطلوب ضمه إلى مبنى المستشفى ولكن بالرغم من ذلك ، وبالرغم من أن الحفارين وجدوا المقابر قد سرق أكثرها ، وأن وجود الجبانة الحديثة فوق الجبانة القديمة كان له أسوأ النتائج ، فإن القليل الذى عثر عليه مؤلف هذا الكتاب كان كافيا لنشر مؤلف هام جاءت أبحاثه ثمرة لمجهود مؤلفه ودقته ، وصورة لما يمكن أن يثمر عنه التعاون بين الإخصائيين المختلفين ، إذ ساعده فى إعداده الكثيرون من العلماء ، وكتب بعضهم فصولا كاملة منه أمثال الدكتور د . إ . درى D.E. Derry الذى فحص جميع العظام الإنسانية وجزءاً من عظام الحيوانات ، والآنسة د . م . ا . بيت D.M.A. Bate التى قامت بفحص ونشر بقايا الحفريات من عظام الحيوانات والزواحف ، وكان لتقريرها فضل كبير فى إماطة اللثام عن الصلة بين ثقافة سكان الخرطوم القديمة وغيرهم من سكان مناطق جنوب وغرب السودان ، بل سكان أفريقيا الشمالية والصحارى أيضاً . وتقريرها فى الحقيقة بحث علمى نفيس لا غنى عنه لأى مشتغل بآثار فجر التاريخ فى أفريقيا ، أو لأى باحث يهتم بما طرأ على أفريقيا من تغييرات جوية فى الخمسة آلاف عام الأخيرة .

فصول الكتاب :

يبدأ الكتاب بوصف الموقع وذكر تاريخ الحفائر والطريقة التى اتبعها الحفارون ، وهى تقسيم الموقع إلى مربعات يحفرون منها واحدا بعد الآخر . ونرى

فى الفصل التالى وصفا جيولوجيا كاملا للمنطقة وخاصة هذا التل ، ويناقش المؤلف فيه عمر هذا الموقع . ويرسم قطاعات مختلفة له، ويوضح ما طرأ عليه من تغيرات على ممر العصور الحديثة . ويلى هذا الفصل فصل آخر هو تقرير الأستاذ « درى » عن الحيوانات التى وجد الحفارون بعض بقاياها، وأهمها التمساح والقنفذ وفرس البحر والجاموس . ثم بعض أنواع الأسماك والأغنام والآرام، ثم الزواحف والحيوانات المفترسة . وأهم شىء جديد عنى الأستاذ درى بدراسته والتعليق عليه هو ما عرف فيه بقايا فأر القصب ، وهو نوع من فصيلة لم تكن معروفة للعلماء من قبل . وكان الفضل للآنسة « بيت » فى معرفته ، وأصبح اسمه العلمى الآن : Thryonomys arkelli Bate-Arkell's Reed Rat ، وهى فصيلة من نوع انقرض الآن من شمال السودان ، ولا يعيش إلا فى مناطق تنزل فيها أمطار كثيرة وتكون أشبه بالمستنقعات .

وفى فصل آخر يستمر الأستاذ « درى » فى تقاريره العلمية عن العظام ، وأهم ما فى هذا الفصل مناقشته لجمجمة لإنسان عثر عليها فى الحفائر وقارنها بالجماجم التى عثرت عليها بعثة السير هنرى ولكم فى جبل مويا بسنار أى على بعد ٣٢٠ كيلو مترا جنوبى الخرطوم وخرج درى من بحثه العلمى بأن سكان الخرطوم القدماء كانوا من النيليين Nilotics ، ومن المحتمل جداً أنهم كانوا يعيشون على صيد الحيوانات والأسماك ، وأنهم من جنس متزنج Negroid ضخم الجسم . وكان من عادتهم خلع القواطع السفلى من أسنانهم .

ووجد الحفارون فى المقابر بعض الألوان وخاصة من أوكسيدات الحديد والخرز المصنوع من الحجر الجيرى أو من بيض النعام ، كما ثبت أيضاً أن بعض العقود لم تكن إلا من عظام السلسلة الفقرية لثعبان البيتون ، وكانوا يلبسونها حول الذراع أو الساق . وما زال بعض أهالى الدنكا والنوير فى جنوبى السودان يلبسون إلى الآن حول وسطهم أحزمة من فقرات البيتون ، ويعتقدون أنها تحمى لابسها من أثر السحر . كما تحمى ماشيته وتزيد من عددها .

وكشفت الحفائر عن عدد كبير من آلات الظران المختلفة ، وهى مصنوعة من الكوارتز ، وأكثرها صغير الحجم . وأثبتت دراستها أنها ترجع فى تاريخها إلى عصر « الباليولوتى الأعلى » ، وهى مجموعة تكاد تكون كاملة لمختلف الأدوات ،

نشرها الأستاذ أركل نشراً وافيا بصورها الفوتوغرافية مع رسم بالريشة بالحجم الطبيعى . ويلى آلات الظران فى الكثرة والأهمية قطع الفخار ، وبالرغم من أن جميع المقابر وجدت مسروقة وجميع الأوانى مكسورة ، فإن بقاياها كانت كافية لعمل تقرير واف عن صناعتها ، ومقارنتها بالأوانى الفخارية الأخرى المعروفة لنا من عصر ما قبل الأسرات فى مصر . وخاصة التى ظهرت من حفائر نقادة وكانوا يصنعون سطح الفخار مزخرفاً ، إما بواسطة أمشاط من عظام الأسماك المختلفة أو بواسطة جسم صلب .

وعثر الأستاذ أركل أيضاً على كثير من الفخار يرجع إلى عصر فجر التاريخ ، ويشابه نظائره فى مصر ، وخاصة ما جاء من حفائر « المس كيتون تومسون » فى الفيوم . ونشر المؤلف فى هذا الفصل بعض الأوانى السليمة التى عثر عليها من قبل فى أم درمان وهذه تشبه إلى أبعد الحدود الفخار الذى عثر عليه فى مصر قبيل ظهور الأسرات .

ومما وجد فى هذا الموقع بعض أشياء مصنوعة من العظام . مثل رءوس الحراب وخطافات الصيد ذات الشعب والسهام (؟) . كما وجدت أيضاً عشرة مخارز لثقب الجلد . وكانت بعض قطع العظام مزخرفة بخطوط متقاطعة ، وربما كان بعضها قطعا من أجزاء من قلائد تعلق فى العنق أو حول الذراع .

ويمكن تلخيص نتائج حفائر الخرطوم فى النقط الآتية :

أولا — أن السكان الأقدمين لهذه المنطقة كانوا يعيشون جزءاً من السنة على مرتفع من الرمل على شاطىء النيل الأزرق ، وهم فى ذلك يشبهون الدنكا فى منطقة بور الذين يعيشون جانبا من السنة فى أماكن على النيل تغمرها بعد ذلك مياه الفيضان .

ثانيا — يختلف سكان الخرطوم القدماء عن الدنكا الحاليين فى مظهر أجسامهم ، وأنهم كانوا يخلعون القواطع السفلى من أسنانهم ، بينما يخلع الدنكا القواطع العليا ، وبينما يعتمد الدنكا فى حياتهم كثيراً على صيد الحيوانات وصيد الأسماك ، فإنهم يعنون عناية كبرى بتربية الماشية ، أما سكان الخرطوم القدماء فإنهم كانوا يعتمدون على الصيد فقط .

ثالثا — يمكننا أن نقول إنهم كانوا يصطادون السمك بالسنارة وبالشباك ، كما كانوا يصطادونه أيضاً بالحربة وبالسهام . ومن المرجح أنهم كانوا

يصطادون الحيوانات الكبيرة ، كالفيل والجاموس وفرس البحر ووحيد القرن ، بواسطة نصب الفخاخ وليس بالخطاف الذى كان يقتصر على صيد السمك .

رابعاً — كانوا يستخدمون فى صيد الحيوانات أو الدفاع عن أنفسهم عصيا قصيرة ثبتت فى أطرافها أحجار مثقوبة ، وهى بلاشك أصل الدبوس الذى عرف فيما بعد .

خامساً — يرجح الأستاذ أركل أن أهل هذه المنطقة كانوا ينامون على حصير مصنوع بشكل يماثل ما يقوم بصنعه الآن الطوارق فى منطقة « أير » ، وكذلك سكان أم جلول فى شمال دارفور الذين يؤكدون نسبتهم إلى العرب ، ولكنهم على الأرجح من سكان ليبيا الذين وفدوا من شمال أفريقيا .

سادسا — كان سكان الخرطوم القدماء يستعملون الطاحون لطحن الحبوب ، ولسنا نستطيع فى الوقت الحاضر التكهن بنوع هذه الحبوب ، ولكنه يمكننا أن نشير إلى أنه جرت العادة عندما يقل محصول الحبوب المنزرعة فى بلاد الزغاوة فى دارفور الشمالية وفى بلاد الطوارق ، وهى المنطقة الواقعة بين الخرطوم والصحراء الكبرى ، أن يعمد الأهالى إلى الحصول على بعض حبوب الحشائش التى تنمو فى تلك البلاد ويطحنونها ويأكلونها . ولكن المؤلف لا يجزم باستعمال الطاحون لأجل الحبوب ، بل يقول أنها ربما كانت لطحن المغرة الصفراء والخضراء التى كانوا يستعملونها لتلوين الطين لعمل الفخار .

سابعا — أثبت وجود بقايا بعض الحيوانات أن معدل نزول الأمطار فى العصر القديم لا بد أنه كان أعلى بكثير من الوقت الحالى ، فقد لوحظ وجود بعض فصائل الحازونات snails التى لا يمكن أن تعيش فى بقعة تقل أمطارها عن ٤٠٠ مليمترا فى السنة وفى جو رطب مستمر ، بينما لا يزيد متوسط نزول الأمطار فى الخرطوم الآن عن ١٦٤ مليمترا ، ويسقط فى المدة ما بين مايو ، وأكتوبر وأكثرها فى شهرى يوليه وأغسطس .

ومما يرجح كثرة الأمطار فى العصر القديم أن بقايا الآرام تدل على وفرتها إذ كانت طعاما محبوبا من السكان ، وهذا النوع من الغزلان لا يعيش إلا حيث يتوفر المرعى والكلأ . أما فى الوقت الحاضر فنظراً لقلة الأمطار ، فإن هذا النوع قد انقرض من المنطقة ، وأصبح لا يوجد إلا فى مناطق أخرى متباعدة . وهناك دليل قوى آخر على وفرة الأمطار فى العصر القديم ، وهو

وجود فأر القصب الذى أشرنا إليه ، فإنه لا يوجد الآن إلا فى أقصى الجنوب والغرب فى السودان ، حيث يكثر المطر وتسود المستنقعات .

ثامنا — إن مقارنة قطع فخار هذا الموقع ، مع ما سبق أن وصل إلى يد العلماء من الفخار القديم الذى وجدوه فى هذا الجزء من السودان ، يجعلنا نعتقد أن أقدم ما وصل إلينا من هذا المكان يرجع تاريخه إلى العصر الميسوليتى ، ويطلق عليه المؤلف اسم ثقافة الخطوط المتموجة Wavy Line Culture ، ويليه بعد ذلك ما أطلق عليه اسم Gouge Culture ، إشارة إلى إحدى الآلات الظرانية التى كانت تستعمل فى هذا العصر ، وكانت تمتاز بانحناء سطحها ، ثم ثقافة جسر أم درمان ، وهما موقعان جاءت منهما آثار من العصور القديمة جداً . ويرى المؤلف أنه إلى أن يتم حفر المناطق كلها حفراً علمياً كاملا يمكننا أن نرجع ثقافة جسر أم درمان مؤقتا إلى عصر قبيل الأسرات Protodynastic (حوالى ٣٠٠٠ ق . م) وحضارة الأزميل المنحنى ، إلى عصر ما قبل الأسرات Predynastic . وهو يميل إلى اعتبار ثقافة الخطوط المنحنية ، وهى التى يعود إليها تاريخ منطقة الخرطوم القديمة إلى العصر الميسوليتى ، وهو السابق لما قبل الأسرات ، ويتساءل عما إذا كان من المتيسر مقارنته بالثقافة الناتوفية Natufian فى فلسطين وفى بعض ما بدأيظهر فى السنين الأخيرة فى جنوبى أوربا من ثقافات من هذا العصر الذى أخذ فيه استعمال الفخار فى الظهور .

تاسعا — وإذا قارنا مجموعة آلات الظران بمثيلاتها ، فإننا نرى أن بعضها يمكن وصفه بأنه يرجع إلى عصر الپاليولوتى الأعلى ، ويشبه فى بعض مظاهره أمثاله من الآلات الظرانية التى عثر عليها فى شمال أفريقيا من النوع المسمى كپسى Capsian ، وما عثر عليه فى مصر من السبيلى الأعلى Upper Sebilian ، وما وصل إلينا من ولتون فى جنوب أفريقيا . وهذه المقارنة ترجح كثيراً أن ثقافة هذا الموقع من الحقبة الميسوليتية يؤيد ذلك نوع الخطاف الذى كان يستعمله أهلها ، والذى يرى مؤلف الكتاب أنه أقدم مما عثر عليه فى الفيوم ويرجع تاريخه إلى الحقبة النيوليتية .

عاشراً — لا شك فى أن هناك تشابها فى بعض مظاهر ثقافة شمال السودان مع ما عثر عليه الباحثون فى غرب السودان ، وفى الصحارى ، وفى شمال أفريقيا ،

مما يدل على وجود صلات بين سكان هذه المناطق كلها فى العصور القديمة .

حادى عشر — أن نتائج حفائر الخرطوم تفتح من جديد موضوع أصل قدماء المصريين وأصل حضارتهم ، وما إذا كانت جاءت من الجنوب أو أتت مع قوم سمر اللون وفدوا من آسيا . وبالرغم من أن مؤلف الكتاب تحاشى أن يسرف فى مناقشة هذه النقطة ، فإنه يظهر من ثنايا كتابته أنه يميل إلى الأخذ بأن حضارة قدماء المصريين جاءت من الجنوب ، ويستدل بما ذكره الكاتب الرومانى ديودور من أن المصريين أنفسهم يقولون ذلك .

هذه هى أهم النتائج التى أسفرت عنها حفائر الخرطوم والتى نشرها الأستاذ أركل فى مؤلفه الهام ، وهى نتائج يرحب بها كل الترحيب جميع المشتغلين بالآثار ، وخاصة من يعنيهم أمر منشأ الحضارة فى وادى النيل .

والكتاب فى حد ذاته تقرير عن موسم للحفائر، ومثل لدقة العمل وتسجيل لكل ما ظهر فى الحفائر مهما قلت قيمته ، وهو أيضاً مظهر جميل لما يمكن أن يأتى من تعاون الإخصائيين المختلفين للوصول إلى النتائج العلمية .

وقد أحسن المؤلف بنشره هذا العدد الكبير من الصور الفوتوغرافية التى سجل فيها جميع مراحل العمل ، وكل ما وصل إلى يده من بقايا أثرية مهما قلت قيمتها ، حتى يمكن لأى باحث فى المستقبل أن يصل إلى ما يريد .

وقد كنا نرجو أن يتناول الأستاذ أركل فى مؤلفه الصلة بين شمال الوادى وجنوبه بشىء من التفصيل ، والمقارنة كما فعل مع ما جاء من آثار من الصحارى ، ومن غرب السودان ، أو من سنار . ولكن ربما كان له العذر فى ذلك ، لأن كتابه ليس إلا تقريراً عن حفائر لم تتم ، وموضوع المقارنة مع ما ظهر من ثقافات فى أقدم عصور التاريخ المصرى موضوع متشعب شائك . ولكن مهما كان الأمر ، فإننا نرى جليا من نتائج حفائر الخرطوم أن وادى النيل شماله وجنوبه كان متأثراً بحضارة واحدة وهى الحضارة النيلة التى نشأت محليا على ضفاف النيل ، واستمدت أصولها من طبيعة البلاد وجوها ، ولكن نظراً لصلة شمال الوادى بالشعوب الأخرى ، ووصول هجرات متتالية إليه من الجنوب ، ومن الغرب ، ومن بعض بلاد آسيا ، وخاصة من بلاد ما بين النهرين ، ومن البلاد التى كان يطلق عليها قدماء المصريين اسم بلاد پونت (وهى بلاد تشمل الصومال وجنوب الجزيرة العربية وليس

الصومال فقط كما ذكر الأستاذ أركل) ، فإن حضارة شمال الوادى أخذت تتأثر بعوامل أخرى غريبة ، بينما ظل جنوب الوادى بعيداً عنها فى تلك العصور . ولكن شمال الوادى وجنوبه كانا ذا صلة وثيقة بما كان فى غرب النيل من سكان وحضارات .

واتجاه العلماء فى السنين الأخيرة اتجاه صريح فى اعتبار أصل قدماء المصريين من الجنوب ، وأن حضارة الوادى كانت حضارة واحدة وثقافة متصلة . ونرى ذلك واضحا فى آخر كتاب صدر عن هذا الموضوع وهو كتاب الدكتورة باوم جرتل (Elise J. Baumgartel; The Culture of Prehis toric Egypt. Exford., 1947). إذ تعتقد مؤلفته أن سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات جاءوها من الجنوب ، وقد جاءت حفائر الخرطوم مؤيدة لذلك . ونحن نرجو أن تلقى الحفائر فى منطقة الخرطوم وأم درمان شيئاً من الضوء على أثر الثقافتين اللتين جاءتا بعد ثقافة هذا الموقع ، لأن ثقافة سكان الخرطوم القديمة هى أقدم الثقافات المكتشفة . وكانت لجنس فيه الكثير من الدم الزنجى ، ولكن الحضارتين الثانيتين أحدث منها ومعاصرة لعصر ما قبل الأسرات فى مصر . وربما كان هناك أثر فى هذه البقعة من وادى النيل للجنس الأسمر الحامى الذى ظهر فى ذلك الوقت فى الشمال ، وربما كشفت الحفائر فى السودان عن أصله ، وعما إذا كان قد وفد إلى وادى النيل من الشرق أو من الغرب ، وأين كان موطنه الأصلى .

وأرى من واجبى قبل أن أختتم هذا التعريف أن أهنىء الأستاذ أركل على مجهوده العظيم . وإسراعه فى نشر مؤلفه فى مثل هذا الإتقان ، إذ أننا فى أشد الحاجة إلى أمثاله لجمع المعلومات اللازمة لدراسة تاريخ وادى النيل وأصل المصريين القدماء وحضارتهم .

أحمد فخرى